إشكالية الهويّة الجزائرية
في فكر مولود قاسم نايت بلقاسم

بوزبوجة أحمد*

ملخص:

رغم التحديات التي واجهتها الجزائر عبر التّاريخ، بفعل الموجات الاستيطانية للعنصر الفينيقي والروماني والوندالي والبزنطي والعربي، وصولا إلى الأتراك، إلاّ أنّها ظلّت محتفظة بشخصية الأمّة التي كان لها حضورها الدولي، ولم يسبق أن اختلف الجزائريون حول مسألة الهويّة كما حدث بعد الاستقلال، نتيجة للتشكيك في انتماءهم الدّيني واللغوي من طرف المستشرقين والمؤرخين الفرنسيين، والذي تبنته فئة من خريجي المدرسة والثقافة الفرنسية، الأمر الذّي دعا إلى التصدي لهذا التوجه وكشف مخططاته، بالتأسيس لخط قومي ووطني تزعمه مولود قاسم نايت بلقاسم، الذي نذر حياته للدفاع عن الهويّة الجزائرية وإبراز مقوماتها الأساسية.

الكلمات المفتاحية:

مولود قاسم نايت بلقاسم، الإنيّة، التاريخ، الدّين، اللّغة، الوطن.

* طالب دكتوراه، التسجيل الثالث، مخبر الجماليات والفلسفة المعاصرة، جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر2.

مدخل:

لقد أخذت إشكالية الهوية لدى مولود قاسم نايت بلقاسم الحيز الأكبر من ضمن اهتماماته ونتاجه الفكري، تلك التي يعبّر عنها "**بالآنية**"[1] و"**الشخصية**"، فمسألة الهوية لديه لم تكن مجرد إشكالية بقدر ما كانت قضية وجودية وهمًا وطنيا ولد من رحم الإرث الفكري والسياسي الذي أفرزه الاحتلال الفرنسي، الذي كان دافعا قويا وسببا مباشرا لتشكل وتماسك الكيان الجزائري المعاصر، فبفضله على اعتبار أنه "الآخر" تمكن الجزائري من التعرف إلى "ذاته"، فاختار المواجهة في سبيل إثبات وجوده، مستهدفا استرداد حريته وكرامته، وعلى مدار أكثر من قرن والجزائريون يعلنون الثورة تلوى الأخرى، إلى أن اندلعت ثورة التحرير الكبرى التي انخرط فيها السواد الأعظم من الشعب، والتي لم تضع أوزارها إلا باستقلال الجزائر في 05 جويلية 1962م، أين قامت الدولة الجزائرية المعاصرة في شكل كيان سياسي له حدوده الجغرافية ولغته ودينه وثقافته، غير أنه ومع بداية هذه الدولة الفتية طفت إلى السطح ملامح الاختلاف في الرؤى والتصورات حول ما ينبغي أن تكون عليه الشخصية الجزائرية، الأمر الذي أدى إلى ظهور خلافات وصراعات خفية مابين السياسيين والمثقفين بشأن اللغة و الإيديولوجية، فكان لمولود قاسم نايت بلقاسم المثقف والسياسي والمطّلع على التجربة الألمانية من خلال فلسفة فيخته، رأي وتصميم على حسم الجدل حول مسألة الهوية، من خلال المزاوجة بين النظرية والفعل، محددا للأبعاد الأساسية التي مكّنت الهويّة الجزائرية من مقاومة أقسى التحديات الحضارية عبر التاريخ. **فما هي أهم الأبعاد التي حدّدها ودافع عنها؟ وما مبررات ذلك؟**

1: حياته و مؤلفاته

مولود قاسم نايت بلقاسم من مواليد 06 يناير 1927م بأقبوا ولاية بجاية، عاش كغيره من أبناء جلدته تحت وطأة القسوة والمعاناة، جرّاء الاستعمار الفرنسي لوطنه، فمنذ صباه كان يشعر بوجود الآخر المختلف، المهدد لوجوده والذي يكون قد اتّخذ منه موقفا عدائيا بفعل أرائه التي أبان عنها وهو تلميذ، حيث " درس اللغة العربية وحفظ القرآن بمسجد قريته "بلعيال" ثم دخل المدرسة الابتدائية الفرنسية وواصل دراسة العربية والفقه في المدارس التقليدية للتربية والتعليم بقرية قلعة آيت عباس".[2] وفي سنة 1946م تنقل إلى جامع الزيتونة بتونس لمواصلة مسيرته المعرفية، أين أصبح من مسئولي اتحادية الطلبة لحزب الشعب الجزائري، وفي سنة 1949م تنقل إلى معهد اللّغات الشرقية بباريس للإطلاع على مناهج المستشرقين غير أنّ إقامته هناك لم تدم إلا بضعة أشهر، كونه كان مناضلا في حركة انتصار الحريات الديمقراطية ليتم استدعائه إلى القاهرة من قبل ممثل حزب الشعب هناك، من أجل دراسة الطيران العسكري في العراق، غير أن خلافا سياسيا وقع ما بين مصر والعراق حين

---

[1] **الإنية:** و يقصد بالإنية ذلك الوعي الحاد بالشخصية وهي تلك الإنية التي يتكلم عنها ابن سينا، والتي تتلخص في أنه كان قد تصور نفسه معلقا بين السماء والأرض وأن جسمه قد انتزع منه وفي حكم العدم، ولم يبق له في تلك اللحظة وهو بين عالمين، إلا ذلك الوعي الحاد بوجوده ،و شعوره بذاته المتميزة القائمة بذاتها المستقلة عن غيرها. (أنظر: مولود قاسم نايت بلقاسم ، إنية و أصالة، ص 104.)

[2] – أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص10.

ذاك أدى إلى فشل المسعى، فتحول مفكرنا إلى طالب فلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة، التي حصل منها على شهادة الليسانس في الفلسفة 1954م بدرجة ممتاز، وكان متصدر الدفعة، والجزائري الوحيد في القسم والثاني في تاريخ القسم بعد الدكتور أبي مدين الشافعي.[1] وأثناء الثورة التحريرية كان ناطقا رسميا ومكلفا بمكتب جبهة التحرير في بلدان ألمانيا والنمسا والدول الأسكندنافية، ما أهله لأن يحمل على عاتقه هموم شعب تنبأ له المؤرخون بالأفول والزوال، فهو الذّي عاد إلى أعماق التاريخ يبحث في جذور أمته متفاخرا بها ومفندا لادعاءات الاستعمار الفرنسي، وداحضا لمواقف بعض الأمم الأخرى التي ادّعت واعتقدت أن الجزائر فرنسية!

وقد اكتشف بعد بحث وتنقيب عن الوثائق التاريخية التي يعترف فيها المؤرخون والسياسيون الفرنسيون أنفسهم بهيبة الدولة الجزائرية قبل 1830م، مما جعله يرفع صوته عاليا معتزا ومتفاخرا، بتاريخ أمته ووجودها وأصالتها، ذلك لأنّه عاش مسكونا بهموم وطنه لكونه مثقفا من جهة، وإلى تكوينه الفلسفي ونزعته التأملية من جهة أخرى، فالظروف السياسية التي منعته من الاستقرار وجعلته يتنقل من بلد إلى آخر ساهمت بشكل ما في صقل وتنمية معارفه، فهو الذّي سجل في شهادة الدكتوراه ثلاث مرات في مواضيع "الحرية عند المعتزلة" في جامعة السربون و"مبدأ الحرية عند كانت" بجامعة بون ثم "اللغة والشخصية عند فخته" بجامعة السوربون مجددا، الأمر الذي جعله يطّلع على الفكر الفلسفي العالمي ويتأثر به، إضافة إلى تنقلاته بين بلدان ألمانيا والنمسا وهولندا والسويد في إطار المهام السياسية التي تكفل بها، ما جعله يكتب ويحاضر بخمس لغات (العربية، الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية السويدية) وبشكل متفاوت أكثر من عشر لغات أخرى.

وظلّ يؤكد على امتداد الهوية الجزائرية في أعماق التاريخ بقوله: "أن الأمة الجزائرية لم تعد "بحاجة" إلى الاستدلال على وجودها دوما ومنذ القديم".[2] فتاريخها ينطق وينطّق معه تاريخ الدول الغربية وخاصة الاستعمارية منها، التي تقرّ بأن سفن دول كفرنسا وأمريكا كانت تدفع للأسطول الجزائري مقابلا ماديا لعبور أعالي البحر الأبيض المتوسط، فكيف يمكن التنكير لأمة كانت سيدة حتى خارج مجالها الجغرافي؟

وهذا ما تعبّر عنه مؤلفاته التالية:

1- الجزائر Algérien Arabische ligo, Bonn, BRD 1957

2- إنية وأصالة (نشر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة قسنطينة 1975م).

3- أصالية أم انفصالية؟ جزأين (نشر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة قسنطينة 1980م)

4- مآثر فاتح نوفمبر (دار البحث، 1983م).

5- شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية، قبل سنة 1830.

6- ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرّة نوفمبر.

---

[1] - أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم: رمز كفاح أمة: حياته، آثاره، شهادات ومواقف، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1993، ص11.(بتصرف)

[2] -المرجع نفسه، ص 101.

2- إشكالية الهوية وعناصرها عند مولود قاسم

من خلال الآثار العلمية التي خلفّها المفكر نستشعر حجم الأهمية التي أولاها للهوية الجزائرية من خلال اهتمامه بالإنية والشخصية، وفي خضّم ذلك الهالة والتقديس التي خصّ بها التّاريخ، واللّغة والدّين وحب الوطن، الأمر الذي مكّنه من تكوين تصور جامع ومانع حول إشكالية الهوية الجزائرية. **فما هي أهم العناصر التي وظّفها في سبيل ذلك؟**

يتناول مولود قاسم مسألة الهوية من خلال التّركيز على – ما يعتقد- أنّها أهم المناهل أو العناصر الأساسية للهويّة الجزائرية، والمتمثلة في اللّغة والدّين وحب الوطن، قائلا في مقدمة مقالة بعنوان: "اللّغة والشخصية في حياة الأمم" في مؤلفه إنية وأصالة: " سأحاول أن أتكلم عن الصلة بين اللغة والشخصية من جهة وصلتهما معا باستمرار حياة أمة من الأمم من جهة أخرى مع التركيز في النهاية على الجزائر".[1] فهو يربط ومنذ الوهلة الأولى، اللغة بحياة الأمّة واستمرار وجودها، أي أن (اللغّة) وليس (اللّغات) أو اللهجات تعدّ من أهم الشروط لوجود أي أمة، مستدلا في ذلك بتجارب وآراء المنظّرين من فلاسفة الأمم التي حققت التقدم، مركزا على عَيِّنَتِهِ المثالية في تجربة الأمة الألمانية، ضمن ظروف تكاد تكون مشابهة لتجربة أمّته، فقد لعب "فخته" دورا مهما في استرجاع ألمانيا لشخصيتها التاريخية، بعد أن تعرضت لمحاولات طمس لهويتها، بفعل سطوة الرومان السياسية والاقتصادية والثقافية.

حيث ينقل لنا مولود قاسم التجربة الألمانية من خلال خطابات "فخته" إلى الأمة الألمانية، ويقتبس من مقولاته ليأكد " أن وجود أمة من الأمم بوجود إنيتها التي هي شخصيتها، وأن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة: الدّين واللغة وحب الوطن".[2] فهذه العناصر الثلاثة التي تكوّن الشّخصية أو الإنية والتي يقصد بها "الهُوِّيَة" تعمل بشكل متداخل فيما بينها عند "فخته" كأنها تشكل مثلما متساوي الأضلاع، لا يكتمل شكله في غياب أحد أضلاعه. كما يستعرض مفكرنا من خلال مؤلفاته أمثلة عديدة من خلال النموذج الألماني وأمثلة أخرى عن تقديس الأمم للغة والدفاع عنها سواء في فرنسا أو في إسرائيل، وهو بهذا الشكل يهيأ لإسقاط هذه التجارب الإنسانية على الأمة الجزائرية، موضوع بحثه وانشغاله.

وإضافة إلى عناصر: الدّين واللغة وحب الوطن التي تعد أهم العناصر المكونة للشخصية الوطنية، يرى نايت بلقاسم أن عنصر التّاريخ يظل أكثر أهمية، بل أنه العنصر الذي يسع وتجتمع فيه بقية الأبعاد المشكلة للهوية الجزائرية " فالتاريخ بحفظه لكل حلقة من حلقات سلسلة الأجداد و الأحفاد، يؤكد عناصر الشخصية الأصلية، والمتفتحة في الوقت نفسه على ضرورات العصر بما لا يضُّر أصالتها، ويعطي الأمة وجها بارز الجهات واضح

[1] – مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975، ص53.
[2] المرجع نفسه، ص54.

القسمات ويضمن لها وجودا متميزا يكون عنوانا لها، وبطاقة إنيتها أو تعريفها بين الأمم".[1] فمن خلال التاريخ الحي فقط، يمكن لأي أمة من الأمم أن تتعرف إلى ذاتها، لتعرض نفسها على الأمم الأخرى، مستمدة قوة شخصيتها وإنيتها من ماضيها المشرق. إذ لا يمكن البحث عن الدّين أو اللغة أو حتى الوطن بمعزل عن التشكل التاريخي ولا هويّة خارج التاريخ، ولهذا يعود مولود قاسم إلى درس التاريخ ليستمد منه ويؤسس للوعي مشيرا إلى أنه "ينبغي أن نستوعب التاريخ، لأنه درس، والذي لا يدرس التاريخ، ولا يهتم بالماضي، لا يمكن أن يكون له حاضر ولا مستقبل".[2]

أ- عنصر التاريخ

إن الحديث عن هُوِّيَة أيّة لأمة، لابدّ أن يطرح أسئلة الماضي السّحيق، ويعود للأحداث التي تثير الفخر والاعتزاز بما يمكن اعتباره بطولات الأسلاف، لذلك تتمّ العودة للتاريخ وطرح الأسئلة من أجل إعادة بناء الوعي بالمكون الذّاتي، وارساء دعائم الهويّة والشخصية الجزائرية، **فكيف أنجز مولود قاسم هذه المهمة؟**

تاريخ الجزائر بالنسبة لمولود قاسم يشكّل الحامل لعناصر الهوية الوطنية التي يسعى إلى حمايتها من التهديد الذّي بات يتربص بها، جرّاء التلفيق الذّي دسّ في المنظومة الثقافية البديلة، التي أسّس لها الاستعمار على مدار قرن كامل، من خلال الاستحواذ على التّراث الثقافي لجزائر ما قبل 1830 وطمس أثاره وإخفائه على الأجيال التي تكوّنت في المدارس الفرنسية، وهذا ما عبّر عنه فرحات عباس أحد رواد المدرسة الكولونيالية بالقول: " لو أنّني اكتشفت الأمّة الجزائرية لأصبحت وطنيا، الجزائر باعتبارها وطنا خرافة لم أكتشفها، لقد سألت التاريخ، وسألت الموتى والأحياء، لقد زرت المقابر لم يحدثني عنها أحد".[3] فهذا التصور التشاؤمي حول الشخصية الجزائرية ووجودها التاريخي، أصبح ثقافة لدى النخبة التي ستتشكل منها القيادة السياسية للجزائر المستقلة.

ومخافة أن يشكّل ذلك تهديدا كامنا للهويّة الجزائرية مرة أخرى، اتّجه مولود قاسم إلى إعادة بناء تاريخ الجزائر وتقديمه في شكل مهيب، من أجل تفنيد ادعاءات المؤرخين الفرنسيين من جهة، وتعزيز ثقة الجزائريون وربطهم بماضيهم من جهة ثانية. فكان أوّل من سلّط الضوء على هيبة الجزائر الدولية قبل 1830م، وأبرَزَ الحقائق التي تثبت تطور الجزائر وقتها، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وأشار إلى سطوتها على دول حوض البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي جعلها هدفا للأطماع الغربية، بشهادة المؤرخين الأوروبيين أنفسهم. وثمة وثائق تاريخية من رسائل ومعاهدات تثبت " أن الجزائر ما قبل 1830 كانت قد بلغت تطورا اجتماعيا واقتصاديا وعسكريا كبيرا...وكان لها الهيمنة الكاملة على حوض البحر المتوسط ولم تكن أي قوة بحرية أخرى تملك أن تبحر أو تتجول

---

[1]- أحمد بن نعمان، **مرجع سابق**، ص95.

[2]- مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، مرجع سابق، ص241.

[3]- الزاوي بغورة، الخطاب الفكري في الجزائر: بين النقد والتأسيس، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، دس، ص 131.

في ذلك البحر إلا بعد دفع الإتاوة للجزائر وإلا فالعقاب ينتظرها ".[1] هذا من الناحية العسكرية وقوة الشخصية والهيبة الدولية للجزائر، الذي كان نتيجة لثرائها بالموارد البشرية والمادية المهمة، فقد "كان عدد سكان الجزائر في ذلك الوقت عشرة ملايين نسمة وسكان العاصمة 50 ألفا نسمة وكان هناك تقدما زراعيا وصناعيا وتعدينيا مشهودا في الجزائر وكان كل جزائري يعرف القراءة والكتابة وبعضهم القرآن أو يتخصص في العلوم الإسلامية أو الدنيوية عن طريق آلاف المدارس والمعاهد المنتشرة والتي كانت تدار بأموال الأوقاف وكانت جميع مراحل التعليم مجانية (الابتدائي.. الثانوي العالي) على نفقة الأوقاف..".[2] هذه المعطيات الحقيقية التي يعتمد عليها **مولود قاسم**، والتي توضّح أن الجزائر كانت دولة لها شخصيتها، من خلال قوتها العسكرية المهيمنة على أعالي البحار، وقوتها السياسية الملزمة للدول الكبرى بالخضوع لإرادتها، تعطي لمقولة التاريخ معنى من شأنه أن يصحح المغالطات التي سوق لها الفكر الغربي، من خلال مؤسساته المشتغلة على موضوع العرب والجزائر.

وواضح أنّه يسعى من خلال تفكيك التاريخ إلى تفنيد ادعاءات المشككين في وجود الجزائر قبل 1962م سواء كان ذلك عن جهل، أو نتيجة مشروع للعلاقات الجزائرية الفرنسية لمرحلة ما بعد الاستقلال السياسي – مرحلة الاستعمار الناعم– فإذا كان المحامي يرافع عن قضيته بالمادة القانونية فإن **مولود قاسم**، يدافع عن وجود الذّات، بالمادة التاريخية التي بمجرد ذكرها تثير الفخر والاعتزاز في نفوس أبناء الأمة، فتلك الذكريات المشتركة والشعور بالانتساب لتلك السلالة التي صنعت المجد، يثير الحماس في النفوس ويزيد الإنسان الجزائري تشبثا بلغته ودينه ووطنه وثقافته وقيّمه الأصيلة، فكيف سيكون شعور من كان يجهل "أن هذه الدولة الجزائرية لم تكن فقط موجودة منذ القدم، دولة من بين الدول، وكسائر الدول، بل كانت، فوق ذلك، دولة عظمى، ولأمة عظمى، تخشاها وتقدرها، وتتحبب إليها وتتآمر ضدها الدول العظمى، مستعينة في ذلك عليها بالمتوسطة بل وحتى بالصغرى؟".[3] إنّ هذه المعطيات المخفية عن أجيال الاستقلال؛ يعتقد مولود قاسم أنّها ستشعرنا بنوع من الفخر والاعتزاز بهويتنا وتأثيرها العميق في أنفسنا. الأمر الذي يسمح بإزاحة الغموض والشك حول أصالة الذّات في التاريخ، وإثارة الرغبة في الإطّلاع على حقيقة ومسار **تلك الأمة؟**

ينطلق المفكر من المأساة التي تعرضت لها أمّته، من محاولات الطمس والتشويه، ولكن الحق يعلوا ولا يعلى عليه والشمس تشرق مهما طال تلبد السماء، فيجيب المؤرخين الفرنسيين وكأنه اكتشف سرا أخفوه قرنا؛ متهكما:" (لقد أدركنا، طبعا) من هي هذه الأمّة: إنها الأمّة الجزائرية المجيدة، التي لا تقل عراقة ولا تاريخية ولا أصالة، ولا أثالة، ولا أقدمية، عن أية أمة تاريخية، عريقة، أصيلة، أثيلة، قديمة، والقدم لله؟ وخاصة تلك التي تدّعي لنفسها المجد، والأصالة، والعراقة، والأثالة، والتاريخية، والأقدمية، والتجانس، والوحدة، وللجزائر المزيج المزركش، والغياب عن المسرح الدولي، ولا تعترف لها، في أحسن الأحوال، إلا بالنشأة الحديثة جدا، أي في سنة 1962م،

---

[1] محمد موزو، بعد 500 عام من سقوط الأندلس: الجزائر تعود لمحمد، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص40.

[2] – المرجع نفسه، ص40.

[3] – مولود قاسم نايت بلقاسم إنية وأصالة، مرجع سابق، ص56.

وكأنها برزت من العدم فجأة... كجنس تلقائي « génération spontanée » أفرزته الرمال، والأدغال".[1] إنّه يضع أمّته نداً للأمم التي تدّعي لنفسها الأصالة والعراقة، وبكل ثقة وفخر يؤكد أنها لا تقل عن أي أمة أخرى، بل كانت أفضل وأقوى من الدول التي احتلتها على حد قول أحد المؤرخين الفرنسي بأن الجزائر كانت تمارس، " بفضل قادتها البحريين، ضغطا على أوروبا كان في صالح فرنسا، خاصة أن ذلك حدث في وقت كانت فيه الأمة الفرنسية مهددة، من شارلكان وهانري الثامن، بالخطر... وبفضل تلك العلاقات مع الجزائر أنقذ فرنسوه الأول عرشه، وحفظ شعبه من الخراب".[2]

ويصور مولود قاسم من خلال الأدلة التاريخية؛ الجزائر في قوة الولايات المتحدة الأمريكية حاليا، من خلال استنجاد " الملك الفرنسي هانري الرابع سنة 1591م بحيدر، رئيس دولة الجزائر، طالبا منه مساعدته على تحرير مرسيليا من "**العصبة المقدسة**" (la sainte ligue) التي انطوت تحتها، في الأصل، مجموعة من الدول".[3] هذه هي حقيقة الأمة الجزائرية، الأمة التي ترى وجهها في مرآة التاريخ فتتعرف إلى ذاتها وهويتها، من خلال جملة من الخصائص ظلّت تغذي قوتها وهيبتها، فمن خلال درس التاريخ، يوضح لنا **مولود قاسم** كيف بدأت ملامح الشخصية الجزائرية تتّضح بشكل تدريجي، بداية من أخذها إطارها الجغرافي إلى بروز طابعها الوطني بقوله: "ولقد أكد الميثاق الوطني حقيقة هذه الأمة، إذ قال بالحرف: "ليست الجزائر كيانا حديث النشأة، فمنذ أيام ماسينيسا، المؤسس الأول للدولة النوميدية، ويوغرطا، رائد المقاومة ضد السيطرة الرومانية، أخذ الإطار الجغرافي يتحدد في معالمه الكبرى، وبدأ الطابع الوطني يبرز ويتأكد باستمرار، خلال التطور الذي شهدته الجزائر في حقبة من التاريخ تزيد على عشرين قرنا".[4] إضافة إلى تجلي عناصر الهوية الجزائرية الأخرى كالدّين واللغة والثقافة كما يوضح: "بالإضافة إلى ذلك أخذت المقاومات الأخرى للأمة الجزائرية تتجلى تدريجيا منذ القرن الهجري (السابع الميلادي)، متمثلة في الوحدة الثقافية واللغوية والقيم الروحية، وفي ضبط الشؤون الاقتصادية ضبطا محكما يعبر عن إرادة قوية في الاستقلال وتمسك شديد بالحرية".[5] فمن خلال هذا العرض تتبين لنا علاقة التاريخ، بالعناصر المشكلة للهوية، فإذا ما أخذنا هذه المعطيات بكونها حقائق ثابتة تاريخيا، سيزول الغموض حول: **السؤال الوجودي لهذه الأمة؟ و العناصر المشكلة لهويتها؟**

يشكل التاريخ في فلسفة مولود قاسم الملجأ الذّي لابد للذّات أن تعود إليه، لتستمد منه القوة اللازمة لمواجهة تحديات عصر ما بعد الاستقلال، من منطلق القناعة بحتمية إعادة تدوين الأحداث التاريخية حسب الشهادات والوثائق التاريخية المتاحة، مؤكدا على أن " تاريخ أمتنا، تاريخ يلهب، ويحمس، ويدفع بنا إلى الأمام،

---

[1]- أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص101.

[2]- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل: 1830، ج2، شركة دار الأمة، الجزائر، ط2، 2007، ص17.

[3]- المرجع نفسه، ص19.

[4]- أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص101.

[5]- المرجع نفسه، ص102.

تاريخ يكون لدينا مثل الإنجيل، ويقرأ بنفس الحب، والتقديس، والإجلال، تمجيدا للأجداد، وحثا لأنفسنا على اقتناء أثرهم، لنكون جديرين بالانتساب إليهم، ولنترك شيئا للأجيال المقبلة يضمن استمرار شخصيتنا".[1] بحيث كان اشتغاله واضحا بمسألة الهوية التي خصها بأهمية بالغة في جميع مؤلفاته، وسعيه إلى مقاومة تيار الفرنسة والتغريب بشكل عملي، من خلال المحاضرات والملتقيات التي أطلقها، في سبيل الإعلاء من التاريخ واللغة العربية والإسلام وتحيين التراث، لقد كان مولود قاسم يتوجس خيفة من المخاطر التي تترصد بالشخصية الوطنية، سواء تعلق الأمر بالتراكمات التي خلفتها سنوات الاستعمار والعوالق التي طالت اللغة والدّين أو ما تعلق بالوافد من الثقافات والسياسات الدولية المهددة للهوية الجزائرية، وقد كان في غاية الصراحة والوضوح في مواقفه تجاه العناصر التي تشكل الشخصية الوطنية. **فما هي هذه العناصر والمقومات التي تشكل الهوية الجزائرية؟وفيما تتمثل مشكلتها ؟**

يقول: "إن الجزائر التي ساهمت بقسطها في إقامة حضارة من أخصب الحضارات وأغناها، هي الحضارة العربية الإسلامية... ثم تعرضت لغزو استعماري، قاومته عشرات وعشرات السنين، عانت أثناءه جميع محاولات المسخ، والإذابة والإدماج، قد قررت بعد استرجاع سيادتها واستقلالها أن تستكملها باستعادة جميع مقومات شخصيتها وعناصر ذاتيتها".[2] فمن خلال هذه النبرة في خطاب مولود قاسم نتلمس رجل الدولة، وصاحب الرأي النافذ و الفيلسوف المنظر لما يجب أن يكون، إذ يضعنا أمام واقع ما بعد استعادة مؤسسات الدولة الجزائرية، والتي يبدو أن مقومات هويتها لا تزال واقعة في مأزق. مما يتطلب بذل جهود وتخطيط في سبيل تحريرها هي الأخرى، وكان يقصد صراحة، اللغة العربية والإسلام وحب الوطن والموروث الثقافي للأمة التي طالها المسخ والتذويب الاستعماري على حد تعبيره.

ب: عنصر اللغة

ينطلق المفكر في معالجته لمشكلة اللغة من الواقع الذي أفرزته الفترة الاستعمارية الذي ترتب عنها استلام الجزائر لإرث سياسي واقتصادي واجتماعي معقد، فبعد أن أرغم الاحتلال على الانسحاب آثر إلى أن يخلّف وراءه حياة ملغمة، بداية من الواقع الثقافي الذي ظلت تطغى عليه اللغة الفرنسية، بوصفها لغة التعاملات الرسمية للسلطة الفتية، واللغة اليومية لما يمكن وصفهم بالمثقفين والمتعلمين، وحتى لسكان المدن الذين كان لهم احتكاك مباشر بالحياة الفرنسية. إلى جانب تدمير وسائل الإنتاج وسحب جميع الودائع التي كانت في الخزائن وخروج الأساتذة والمعلمين والإداريين الفرنسيين من الجزائر، الأمر الذي خلق حالة من الفراغ الرهيب والتوقف الكلي للمؤسسات فكان الأمر بمثابة تحدي واجه الدولة الجزائرية، التي اضطرت إلى الاستعانة بالنخبة المحسوبة على الثقافة الفرنسية، والتي تلقت تعليمها في معاهد وجامعات باريس وكان الكثير منهم يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية.

---

[1] – أحمد بن نعمان، **المرجع السابق**، ص 60.

[2] – مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل: 1830**،مرجع سابق، ص210.

وبطبيعة الحال وأمام هذا الوضع تمكنت اللغة الفرنسية من المحافظة على مكانتها في الجزائر المستقلة، واستأنفت بها عملية التربية والتعليم. فالمدارس الفرنسية والثانويات "في العاصمة وفي كبريات المدن ظلّت تستقبل أبناء الموظفين السامين في الدولة إلى غاية عام 1975، يدرسون فيها البرامج الفرنسية على يد أساتذة معظمهم من غلاة الاستعماريين وبديهي أن معظم المتخرجين من هذه المدارس والثانويات سيكونون بحكم وضعهم الاجتماعي إطارات المستقبل الذين يأخذون بيد العامل والفلاح لتحقيق أهداف الثورة في جميع الميادين".[1] وأمام هذا الوضع المعقد لمسألة اللغة كان مولود قاسم يدرك أكثر من غيره، أن الاستقلال الذي كسبته الجزائر سيظل ناقصا ما لم توضع السياسات من أجل إعادة اللغة العربية لمكانتها الطبيعية "وذلك أن لغتنا هي من أهم عناصر شخصيتنا، ولساننا الذي ينبغي أن نعبر به عنها، وأنها من أهم مطالب شعبنا طوال العهد الاستعماري، وأحد الأهداف الأساسية لنضالنا الطويل وثورتنا المجيدة".[2] والعمل على جعلها لغة التعامل والتعليم مسألة سيادة. "وبدون استرجاع هذا العنصر الهام الذي هو عنصر اللغة فإن مجهودنا سيظل أبتر، وشخصيتنا ناقصة وذاتيتنا بلا روح".[3] وهنا يشير صراحة بكونه رجل الدولة والنظام السياسي من خلال هذه الخطابات، إلى صعوبة التحرّر من هيمنة لغة المحتّل، ملمحا إلى أن الثورة على الاستعمار ستظل مستمرة، إلى غاية استعادة اللغة العربية مكانتها الطبيعية، وهو يدرك أن المسألة معقدة لذلك في معالجته لمشكلة اللغة اضطر إلى الاستعانة بتجربة عالمية ناجحة لتكون دليلا على قوة أطروحته، إلاّ أنّ المثقفون والسياسيون كانوا مرتاحون ومطمئنون وهم يتعاملون ويتواصلون باللغة الفرنسية، وغير مستعدين لتجربة التعريب بحكم جهلهم للغة العربية، التي شكلت لديهم مركب نقص، وكان ذلك واضحا من خلال تحدث المسؤولين مع الشعب باللغة الفرنسية.

ففي مؤلفه "إنية وأصالة" يقدم اللغة والشخصية في حياة الأمم، فيستعرض لنا مثالا من التجربة التي خاضتها ألمانيا في القرن الماضي، من خلال فلسفة (فخته* Johann Gottlieb Fichte) الذي يعظمه ويعلي من شأنه، فهو يقدم لنا تراجيديا الغالب والمغلوب وكيف يصيح المغلوب مولعا بتقليد الغالب إلى درجة يفقد فيها جميع مقوماته الذاتية، بحيث ينطلق فيخته من نقطة الصراع ما بين الأمم وما يترتب عنه من مركبات النقص، فيقول: "لأن اليونان غرسوا في الرومان مركب النقص وسموهم المتوحشين barbaren، حاول الرومان طاقة جهدهم تقليد اليونان في كل شيء ليتخلصوا من جلبابهم، ويصبحوا يونان، ولا تنطبق عليهم صفة

---

[1]- تاريخ الجزائر المعاصر، ص173.

[2]- مولود قاسم نايت بقاسم، **إنية وأصالة**، مرجع سابق، ص89.

[3]- المرجع نفسه، ص89.

* **يوهان كوتليب فيخته** Johann Gottlieb Fichte (19 مايو 1762 – 27 يناير 1814) كان فيلسوفاً ألمانياً. وكان أحد مؤسسي الحركة الفلسفية المعروفة باسم المثالية الألمانية، وهي الحركة التي تطورت من الكتابات النظرية والأخلاقية لإمانويل كانت. أثّر على العلوم الألمانية في مجالات الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) وعلم الجمال والفكر الاجتماعي. وكثيراً ما يُنظر إلى فيخته على أنه الشخص الذي تشكل فلسفته جسراً بين أفكار كل من كانت والمثالي الألماني فريدريش هيغل. مؤخراً، بدأ الفلاسفة والباحثون في تقدير فيخته كفيلسوف هام في حد ذاته بسبب (نظراته المعمقة) الأصيلة في طبيعة الوعي الذاتي أو الوعي بالذّات. ومثل ديكارت وكانت قبله، فقد كانت مشكلتا الموضوعية والوعي المحرك الرئيسي لتأملاته الفلسفية. وقد كتب فيخته أيضاً فلسفة سياسية، ويعتقد البعض أنه أبو القومية الألمانية (أنظر: وهان_ گوتليب _فيخته https://www.marefa.org/).

المتوحشين".[1] بعد هذا المثال التاريخي الذي جعل أمة تغير من مقوماتها لتتشبه بأخرى، يلج بنا "فخته" إلى قضيته وكيف أن "الرومان وصوفوا الألمان بهذا النعت بذل هؤلاء الأخيرون كل ما استطاعوا من جهد لتقليد الرومان والاندماج فيهم، وذهب بهم مركب النقص والتأثر بالرومان والتلعق بهم، والحرص على التشبه بهم، إلى حد إلغاء جميع الكلمات التي يبدو عليها طابع الأصالة الجرمانية ليحلو محلها كلمات لاتينية، لأن هذه الأخيرة في نظرهم مثال النبل، والأناقة، ورمز الثقافة الرفيعة".[2] مبرزا حالة السَّلْبْ التي عاشتها اللغة الألمانية في مرحلة ما، بفعل الانبهار بالحضارة الرومانية والشعور بالنقص تجاه منجزاتها، الأمر الذي كاد أن يعصف بوجودها ووجود الأمة المتكلمة بها.

من خلال هذا المشهد يبدوا أن مولود قاسم أراد أن يقدم لنا نسخة مطابقة لمشكلة اللغة العربية في الجزائر، التي تعرضت لاستعمار فرنسي كان أقوى منها حضاريا، وبالتالي قد خلف ذلك مركب نقص لدى الجزائريين، الأمر الذي دفع بهم إلى تقليد المحتل في كل شيء وهذا ما أوضحه فرانز فانون في مؤلفه "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، " فإذا كانت اللغة تؤثر في الشعب المتكلم بها تأثيرا لا حد له، يمتد إلى تفكيره، وإرادته وعواطفه، وتصوراته وإلى أعماق أعماقه، وإلى جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير، ومكتفية به".[3] فإن اللغة الفرنسية كما أوضحنا قد استتب لها الأمر، وسيطرت على الدولة الجزائرية وعلى خطاباتها الرسمية وتعاملاتها اليومية وإعلامها وتعليمها، وتأثر بها قطاع واسع من الشعب وخاصة المثقفون والموظفون والرسميون من أصحاب القرار، تأثيرا يمتد إلى عواطفهم وتصوراتهم، فكيف سيتقبل هؤلاء التنازل عنها؟ وكيف ستكون ردود أفعالهم، تجاه محاولات مولود قاسم؟

في خضم خطابه يتوقع المفكّر الصعوبات التي تعترض مشروع إعادة اللغة العربية إلى عرشها، بداية من رفض النخبة المتأثرة بالثقافة الفرنسية وتشكيكها في الغرض فيقول على لسانها منتقدا نفسه: "قد يقول البعض أن هذا الحماس كله من طرف فخته حماس مؤقت بالظروف التي أحاطت بألمانيا آنذاك، وأن هذا لم يعد ينطبق على عصرنا هذا... الذي لم تعد فيه اللغة محملة بتلك الشحنة من العواطف والانفعالات، وإن المهم هو هذا التقدم الصناعي، بأية لغة كانت".[4] وعلى الرغم من الطابع الافتراضي لهذا النقد من حيث الشكل إلا أنه لا يخلو من الإفصاح عن مشكلة حقيقية في مضمونه، والتي تعكس ظاهرة تعدد الأجنحة الإيديولوجية في الجزائر، والتي لا تتقن سوى لغة الصراع من أجل التموقع في السلطة، والتي يملك أفرادها القدرة على تعطيل وإفساد المشاريع السياسية العامة، بحكم نفوذهم وتغليب الذّاتية على الموضوعية وربما بحكم تبعيتهم لسلطة ما، ومثل هؤلاء قد استهانوا ومنذ البداية وقللوا من شأن اللغة العربية، وهذا ما جعل مولود قاسم يرد على الرد الافتراضي: "أقول لا

---

[1]- المرجع السابق، ص59.

[2]- المرجع السابق، ص59.

[3]- المرجع نفسه، ص 58.

[4]- المرجع نفسه، ص 71.

وألف لا، وأحدث الأدلة والتجارب لدى بعض الأمم عديدة لتأكيد صحة ما أقول".[1] فتجده متحمسا لتأكيد صحة قوله وكأنه تعرض لتكذيب؟ فيستعرض أدلة أخرى من التجارب المعاصرة، ودائما فإنه في ألمانيا، لا بكالوريا مع ضعيف في اللغة الألمانية، وفي فرنسا تأسس منبرا إعلاميا للدفاع عن اللغة الفرنسية ضد تغلغل اللغة الإنجليزية، وحتى الإسرائيليون اجتهدوا لإحياء لغة ميتة وأسسوا سنة 1953 المجمع العلمي للغة العبرية، "وأما في فيتنام المكافح المناضل منذ أكثر من عشرين سنة فإن لغة المعاهد، والكليات والمعامل النشيطة تحت الأرض والمعرضة في كل وقت للقنبلة والتدمير ليست إلا الفيتنامية".[2] وبهذا الشكل يعدد مولود قاسم وينوع الأدلة الداعمة لموقفه من اللغة العربية، ويشير إلى أنها اللغة الطبيعية للأمة الجزائرية، فقد كانت قبل الاحتلال لغة العلم والتعليم والثقافة، ورغم الإزاحة التي تعرضت لها إلا أنها ظالت كامنة في وجدان الجزائريين، والتي بفضلها استطاعوا الانبعاث أمة من جديد: فمقولة ابن باديس الخالدة: "الجزائر وطني، والإسلام ديني، والعربية لغتي" يتخلص فيها كل ما قاله فيخته، "وليس غريبا أن تصبح العربية على ما أصبحت عليه بعد قرن وربع من احتلال من أبشع الاحتلالات خلال التاريخ... ولكن الغريب ألا نتصدى نحن الآن بكل حزم لكل من يريد أن يماطل ويؤجل يوم إعادة هذه المياه إلى مجاريها الطبيعية".[3]

فالمفكر لا يستغرب المال الذي آلت إليه اللغة العربية بفعل الظروف التاريخية، لكنه يستغرب حالة القصور في التصدي للنخب المعرقلة لمشروع تعريب الحياة العامة بالجزائر وهذا ما سبق ذكره آنفا، بأن مسعى مولود قاسم لاقى معارضة شديدة من قبل" سجناء الماضي غير البعيد" والذين ادّعوا أن اللغة مجرد أداة، "والعربية كأداة لمسايرة الركب الحضاري والتقدم التقني غير متهيئة وغير صالحة" مما زاد في مجادلته لهم من خلال الاستشهاد بأقوال المستشرقين بخصوص علمية اللغة العربية وأنها كانت لغة العلم والفلسفة لدى علماء أوروبا خلال القرون الوسطى، ورغم كل هذا فإن مولود قاسم لم ينجح في إقناع جبهة الرفض هذه، لكنه من الناحية النظرية استطاع أن يهيئ الظروف بفعل الحجج التي أوردها، للتحسيس بأهمية اللغة العربية، إثباتا للذّات الوطنية وتأسيس للهوية الجزائرية، ولأنه كان رجل دولة وقريبا جدا من صنّاع القرار وربما مؤثرا، تمكن أخيرا من تمرير مشروعه إلى التنفيذ، والذي تضمنه خطاب الرئيس هواري بومدين بمناسبة تدشين جامعة قسنطينة الذي جاء على النحو التالي: "وكما حرصنا على استرجاع جميع مواردنا وثرواتنا المادية سنعمل على تعزيز هذا التكوين بتربية وطنية مثلى تساعدنا على استعادة جميع ثرواتنا المعنوية، وعناصر شخصيتنا، والمكونات الأساسية لذاتيتنا، ومن أهمها الوسيلة الأولى للتعبير عن هذه الشخصية... وبدون استرجاع هذا العنصر الهام الذي هو عنصر اللغة فإن مجهودنا سيظل أبتر، وشخصيتنا ناقصة، وذاتيتنا جسما بلا روح".[4] وبناء على هذا الوعي انتهجت السلطة سياسة

---

[1]- المرجع نفسه، ص71.

[2]- المرجع السابق، ص76.

[3]- المرجع نفسه، ص80.

[4]- المرجع نفسه، ص 89.

التعريب وادخلتها مجال مجال التطبيق لكن بوتيرة بطيئة وتدريجية، حيث تقرر بداية من سنة 1971م اشتراط معرفة اللغة العربية لتقليد أية وظيفة، وباشرت وزارة التربية الوطنية عملية تعريب التعليم الذي شهدت هي الأخرى حالات متعددة من الشد والجذب، فالتجارب والإصلاحات المتكررة وتداول المعربين والمفرنسين على القطاع جعل منه صراع بين اللغة العربية واللغة الفرنسية، ما يزال مستثمرا إلى يومنا هذا.

ومن خلال هذا العرض قد أثبت مولود قاسم أن اللغة شرط وضرورة لوجود الأمة. وأي محاولة لتأسيس الهوية بعيدا عن اللغة ستكون مشروعا فاشلا، وتصورا غير طبيعي للتطور، فالجزائريون الذين يتكلمون الفرنسية ولا يعرفون العربية، متأثرون إلى حد كبير باللغة الفرنسية، وبها يرتبط تفكيرهم، وتتحرك عواطفهم وتبنى تصوراتهم. وقد كان هذا الصنف من أهم المشكلات التي اعترضت عملية استئناف اللغة العربية لوجودها بفعل الصراع التاريخي بين اللغتين، وبالرغم من محاولات تذليل هذه الصعوبات فإن الزمن اللازم لتنفيذ المشروع لا يمكن ضبطه بدقة أو التحكم فيه، نظرا لتداخل عدة عوامل في العملية، إضافة إلى المشكلة الكلاسيكية، مشكلة مركب النقص الذي يدفع الجزائريون إلى تفضيل التحدث باللغة الفرنسية، هذا ما يؤكده مولود قاسم في حديث أجراه مع أسبوعية (ألجيري أكتوياليتي Algérie Actualité): "نجد المغاربة والجزائريين على وجه الخصوص ... ومع معرفتهم العربية، لا يتكلمون في معظم الأحيان إلا الفرنسية، حتى وأن تعلق الأمر بأشياء جد بسيطة لا تستدعي معرفة مصطلحات تقنية متطورة".[1]

وحتى مع مرور الوقت لم تستطيع اللغة العربية احتلال مكانتها الطبيعية، فالإدارة السياسية ما تزال لم تحسم أمرها بخصوص اللغة بعد، ورغم ورود نصوص قانونية صريحة تمنع تحرير الوثائق الرسمية بالفرنسية، إلا أن العكس ما يزال سائدا في مؤسسات المالية والضرائب، وما يزال الرسميون في أعلى هرم السلطة يتخاطبون ويخاطبون بالفرنسية. و بخصوص عامة الجزائريون فإن معظمهم يتداولون اللهجات في تواصلهم وفي ثقافتهم بحيث حافظت الكلمات الفرنسية على مواضع عدة ضمن هذه التراكيب مما يعني أن اللغة العربية قد لا تستعيد أكثر مما وصلت إليه.

وربما قد تنزاح من جديد بفعل إفرازات الواقع العالمي الجديد، فالطفرة التكنولوجية في عالم الإعلام والاتصال نتج عنها تشكل جديد في لغة التواصل ما بين سكان الأرض، وهذا ما نلاحظه من خلال الرسائل غير المفهومة في أغلب الأحيان ما بين الأجيال الصاعدة، غير أن شبكات التواصل الاجتماعي، والتي هي مزيج ما بين عدة لغات وأحيانا لهجات محلية وكلمات من اللغة العربية لكن بحروف غربية.

ج: عنصر الدّين

يقوم خطاب المفكر ومنذ البداية على فرضية أن الشخصية الجزائرية قامت في عز الحضارة العربية الإسلامية، وكانت اللغة العربية والدّين الإسلامي أهم مقوماتها التي تتميز بها عن باقي الدول والأمم، وبفعل الدّين الإسلامي استطاعت أن تحافظ على وجودها ردحا من الزمن بقوله: "ولقد كان الإسلام دوما روح مقاومتها

[1] – أحمد بن نعمان، مرجع سابق، ص126.

ومصارعتها لمحاولات الابتلاع".[1] فهو يرى أن الإسلام متجذر في وجدان الجزائريين ويجمعهم منذ قرون، حيث ظل المحرك الأساسي نحو معرفة الذّات. والتمييز بين "الأنا" و"الآخر" "حيث كان "الأنا" يقوم على مرجعيتين: المرجع الدّيني المتمثل في الإسلام والمرجع القبلي أو العصبي الذي نعرف أن عبد الرحمن بن خلدون قد جعله أساس التجمعات البشرية في مجتمعات المغرب الغربي، وقد أدى هذا الإدراك اللذّات إلى إدراك "الآخر" بالدرجة الأولى في صورة "المسيحي".[2] المتمثل هذه المرّة؛ في المحتل الفرنسي الذي كان يدرك أن القضاء على الإسلام هو مفتاح القضاء على الهوية الجزائرية، إلاّ أنّ السعي إلى تنفيذ مخططات تستهدف الدّين، كان بمثابة التحدي الذّي استجاب له الجزائريون بالطبيعة، ذلك لأن " العلاقة المعنوية والثقافية والفكرية التي تجمع بين المجتمع الجزائري هي الحضارة الإسلامية بما فيها من دين وثقافة وتقاليد وقوانين وأحكام. (...) بحيث كان الإسلام ليس مجرد دين أو مادة للعبادة فقط عند الناس. وإنما كان أيضا مصدرا للثقافة والنظم القانونية والعلاقات الاجتماعية والتقاليد الوطنية وكان هو أهم عنصر من مقومات الشخصية الجزائرية." [3] هذا ما يبرّر حرص قطاع واسع من الجزائريين الذّين "كانوا يحفظون القرآن الكريم على اعتبار أنه الطريقة الوحيدة للمحافظة على كيانهم المتميز".[4] وبالفعل فقد حفظ الإسلام الهوية الجزائرية وجنبها الزوال والذوبان، " ولولا الإسلام لما كان هناك عالم عربي".[5] حسب مولود قاسم. وبهذا الشكل "استمر العامل الدّيني، كما عبّر عنه عبد الحميد ابن باديس، كعامل مكون لـ "الأنا" باعتبار أنه يحول دون الاندماج في "الآخر" مما يسمح بالتالي استمرار ظهور هذا الأخير في مظهر المحتل".[6]

وليس ثمة شك في أنّ البعد الدّيني في الهويّة الجزائرية قد دفع بالجزائريين إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي من خلال الصدى والحماس الذي بعثته الفكرة الدّينية لديهم، فقد أصبح الإسلام إلى جانب العروبة شعار جميع الجزائريين على اختلاف أعراقهم ولهجاتهم، وقد تبنته الحركات الوطنية في خضّم مقاومتها للاستعمار، بحيث " أثبتت ثورة الجزائر عددا من الحقائق التي لا يمكن تجاهلها(...) أنّ الإسلام قوة غير قابلة للموت ولا للتدمير- وخاصة في الجزائر. وأنّه برغم كل الممارسات الوحشية الفرنسية واستخدام أبشع وأعقد الأساليب فقد ظلّ الإسلام في وجدان شعب الجزائر".[7] حيث كانت الخلفية الدّينية تهيمن على ثقافة المجتمع، وليس ثمة خطاب فكري أو تربوي منفصل عن الآيات القرآنية التي تشحذ همّة الإنسان المسلم المغلوب على أمره، وخاصة إذا كان الغالب

---

[1]- مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل: 1830**، مرجع سابق، ص210.

[2] - رضا حنكوش، **مسألة الهوية في المجتمع الجزائري: جدل الذّات والأخر**، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، عدد 19، أبريل 2009. ص128.

[3] عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، **مختصر تاريخ الجزائر: السياسي والثقافي والاجتماعي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص191.

[4]- محمد موزو، مرجع سابق، ص69.

[5]- مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل: 1830**، مرجع سابق، ص241.

[6]- رضا حنكوش، مرجع سابق، ص128.

[7]- محمد موزو، مرجع سابق، ص108.

خصما حضاريا، لذلك كانت ﴿**ولَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [1] بمثابة شعار أمّة تفطّنت إلى مشروع التّنصير وإلى التهّديد الخطير لدينها وثقافتها.

وبالرغم من سياسة التغريب المحكمة التي مارسها الاستعمار على الأهالي، إلاّ أنّهم تشبثوا بالهويّة الإسلامية " ولولا التأكيد على خصوصية شعب الجزائر المتمثلة في الإسلام والعروبة، ولولا تأكيد الإسلام والعروبة في ضمير الجزائريين لما كان للثورة أن تظهر أو تنتصر".[2] وحتى من جهة المفاهيم المستخدمة، نلاحظ أنّ مفهوم الثورة الذّي جاء كظاهرة سياسية جديدة سوق لها المدّ الشيوعي الدّاعم للشعوب المستعمرة ضد الغطرسة الامبريالية في إطار الصّراع الأيديولوجي العالمي؛ استخدمه الثوّار الجزائريون شكلا، في حين دوافعهم ومشاعرهم كانت مرتبطة بالنزعة الدّينية، بحيث كانت مجموعة قليلة العدّة والعدد من المجاهدين، تشتبك مع جيش منظم دون تقاعس أو خوف، وهم يردّدون ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[3] **وهذه حقيقة لا يمكن إخفاءها، ذلك لأنّ** الشعب الجزائري لم يعلن مجرد ثورة؛ بل الجهاد باسم الدّين، والدّليل على ذلك أن الذّين قاموا بالثورة لم يكونوا ثوارا، بل مجاهدين وما تزال وزارة المجاهدين شاهدة على ذلك، وأمواتهم كانوا شهداء والشهادة لا تكون إلا في سبيل الله، وحتى كلمة السّر التي كانوا يستخدمونها؛ كانت الله أكبر، خالد وعقبه.

مولود قاسم نايت بلقاسم المثقف والمطّلع، كان متأكدا من هذه الحقيقة، ولم يكن متحيزا بفعل ثقافته وأيديولوجيته، بل هو ناقل لتاريخ حدث بالفعل، وشاهد على عصر عاشه هو وأقرانه ممن صنعوا أحداث ثورة الجزائر، وقد كان مقتنعا وشاهدا على أنّه: "وبلا جدال لعب الإسلام الدور الأساسي في إنقاذ الجزائر من السيطرة الفرنسية، بل كان المحرّك الأوحد لتأكيد الوطنية الجزائرية في مواجهة محاولات إبادة هذه الأمة (...) أن الكفاح التحريري كان يسمى بلسان الشعب "الجهاد" وصحيفة جبهة التحرير(...) تسمى المجاهد، وثوار التحرير والمقاتلون من أجل الحرية كانوا يسمون "المجاهدين"".[4]

فالمفكر يقر من خلال هذا النص بالهوية الإسلامية للثورة الجزائرية والدور الحاسم الذي لعبه الدّين في أنبعاث الشخصية الوطنية الجزائرية بعد انقطاع طويل، لكن ماذا عن مرحلة ما بعد الاستقلال؟ وماذا عن الإسلام في الجزائر المستقلة؟

كما يذهب مولود قاسم إلى التأكيد على أن الدور الذي لعبه الإسلام في الأمس سيتواصل اليوم، فمثلما "كان في الماضي يمثل حصانتنا ضد اقتلاع الذّات، وهو اليوم يعزز فينا فعاليات هذه الحصانة والمناعة في مواجهة كل الإيديولوجيات و تصفية كل رواسب الاستعمار(...) إن الدّين الرسمي لدولة الجزائر هو الإسلام. وليس هذا

---

[1] سورة البقرة، آية 120.

[2] – المرجع السابق، ص74.

[3] سورة البقرة، آية 249.

[4] – مولود قاسم، **أصالية أم انفصالية**،ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص155.

مجرد نص تقليدي. إن الإسلام بالنسبة لنا أنفاس وجودنا، وهواء حياتنا".[1] ومن هذا يتضح لنا أن المسألة الدينية بالنسبة للخطاب الرسمي الذي يمثله مفكرنا، تعد محسومة من خلال شعار "الإسلام دين الدولة" ومثلما حصن الدّين، الجزائر من الزوال سيظل السلاح الذي تستخدمه الأمة كلما دعت الحاجة إلي مواجهة الإيديولوجيات المعارضة، الأمر الذي لا يطرح أي مشكلة حسب مولود قاسم ، غير أن تغلغل الإسلام في وجدان الجزائريين وخوضهم جهادا باسمه وفي سبيل الله وفي سبيل الوطن، قد يدفع بقطاع واسع منهم إلي التمسك به والغيرة عليه، الأمر الذي يزيل الثقة بين الشعب ورجال السلطة والحزب الذين فرضوا نظاما سياسيا لا يستجيب لتطلعات الأمة، وهذا ما عبر عنه البشير الإبراهيمي في بيان 16 أبريل 1964 . إذا أليست المعارضة وانتقاد السلطة بخصوص الدّين تعبيرا عن مشكلة هوية؟

د. الوطن

بالإضافة إلى اللغة والدين، فإن عنصر حب الوطن لا ينفصل عن سابقيه من أجل تشكيل هرم الهوية، فالنزعة الوطنية هي التي تلتقي عندها العناصر السابقة لتكتمل عندها الشخصية الجزائرية، من خلال الشعور القوي بالمواطنة والانتماء إلى درجة التضحية في سبيل الوطن، وقد ذكرنا سابقا أن أصل هذه الفكرة استمدها مولود قاسم من فلسفة "فخته" القائل: "إن وجود أمة من الأمم بوجود إنيتها التي هي شخصيتها، وإن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة: الدين، واللغة، وحب الوطن".[2]

وحب الوطن هنا هو أن تكون وطنيا تحمل الشعور بالمسؤولية اتجاه الوطن الذي يتحدد في وجدانك بشكل نفسي، بفعل عوامل الجغرافيا واللغة والدين، والماضي والمصير، فالإنسان المحب لوطنه يعتبر أصاليا والذي لا يكترث يراه مولود قاسم انفصالي ليس فيه قطرة من حب الوطن، الذي هو نوع من الاستعداد النفسي يظهر كرد فعل ضد كل ما يمس بالوطن أو مقومات الشخصية الوطنية، فيقول: "وإذا لم يكن لديك استعداد، إذا ما نال منال من ركن من أركان شخصيتك، ومكون من مكونات ذاتيتك، وعنصر من عناصر إنيتك وأصالتك(...) كن متأكدا في هذه الحال أنك انفصالي، ولا يحق القول أنك أصالي(...) فإذا لم تأخذك تلك القشعريرة الرهيبة عند مغادرة وطنك لمدة، مختارا، وخاصة مضطر(...) وإذا لم تطرب وأنت في الغربة عند العثور على صوت بلدك في الإذاعة، أو سماع لغتك في شارع، أو رؤية اسمه في جريدة أو كتاب، فأنت ليست فيك إذن قطرة من حب الوطن ولا من ولا من وطنية".[3] فهو يشترط ردود الفعل الإيجابية تجاه ما يرتبط بالوطن تماما مثلما تعبر عنه تجربة "بافلوف" فحب الوطن هو تعبير لاشعوري عن التمسك بمقومات الشخصية والإنية، وبه تكتمل الهوية فشعار ابن باديس، الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا" كان نابعا من عمق الشعور الوطني وأصبح حسا مشتركا بفعل الماضي الذي آلم الجميع والمصير المشترك.

---

[1] – المرجع نفسه، ص256.

[2] – مولود قاسم نايت بلقاسم، **إنية وأصالة**، مرجع سابق، ص54.

[3] – مولود قاسم نايت بلقاسم، **أصالية أم انفصالية، ج2**، مرجع سابق، ص68.

3. خلاصة

إذا كان يمكن القول على حد تعبير الزواوي بغورة أن: "الوعي القومي واللغة والدّين لم تتبلور كمكونات الشخصية الوطنية إلا داخل حلبة الصراع ضد فرنسا المحتلة".[1] فإن إشكالية الهوية والتعبير عنها في فكر مولود قاسم تأسست هي الأخرى، في خضّم الصراع السياسي والأيديولوجي الذي نشب ما بين النخب الجزائرية، سواء في الحركة الوطنية أو أثناء الثورة، والذي تعاظم بعد الاستقلال، وهي تعبير عن النوايا السياسية للنظام، التي ركزت ومنذ البداية على إقصاء وتهميش الكفاءات، وتطبيق سياسة اجتماعية تفضيلية، كإعطاء الحق والأولوية للمجاهدين وأبناء وأرامل الشهداء في جميع مناحي الحياة خالقة بذلك، مركب نقص جديد فيما بين أبناء الهوية الواحدة.

ورغم قوة الطرح الذي ميّز منهج مولود قاسم في إحياء المعرفة والوعي بالتاريخ، إلاّ أنّه ركّز على العوامل الخارجية التي شوهت وطمست التاريخ، وأغفل العوامل الدّاخلية ولاسيما الصراع على السلطة، والاختلاف على المرجعيات الرمزية الذي كان قائما بين العرب والأمازيغ، ولم يشر إلى مسألة المكون الأمازيغي في مؤلفاته، بغض النظر عن كون الأمازيغية لغة أم مجرد لهجة محلية، وحصر صراع الهوية بين اللغة العربية والفرنسية، وحتى الصراع في هذا المجال جعله صراع أولوية، وبالنسبة للدّين فإن مولود قاسم بدا متناقضا من خلال التأكيد على فضله في استرجاع السيادة الوطنية بينما همشت السلطة وأقصت أعضاء جمعية العلماء المسلمين وعاقبتهم عن غيرتهم على ثقافتهم ولغتهم، حيث اكتفى مولود قاسم بتزكية النظام الاشتراكي من خلال ربطه بالإسلام مبرزا: "أن أصول الاشتراكية قد وجدت منذ أربعة عشر قرنا، وذلك في روح الإسلام ونصه، وهو دين العدالة، والإنصاف، والتضامن والرحمة، مع المحافظة على حرية المبادرة، والتنافس في العمل البناء، ومع الاحتفاظ بالقيم الروحية والأخلاقية العليا التي بها يتماسك المجتمع ويقوي بنيانه، وذلك كله ما نود أن نسميه بأصالة مجتمعنا الاشتراكي".[2] كما يمكننا أيضا قراءة المعطيات من زاوية أخرى لكون أن مرحلة الاستقلال قد شهدت حالة صراع وأن السياسة التي كان مولود قاسم جزء منها، قد جنبت البلاد احتمالات حربا أهلية من أجل اللغة والدّين، وبالتالي فقد عالج المشكلة بشكل موضوعي وابتعد عن الذّاتية كونه ينتمي إلى الأمازيغ ومع ذلك لم يتناول الأمازيغية كلغة !

ورغم إيمان مولود قاسم بقوة أطروحته، المدعمة بحجج تاريخية وتجارب حضارية رائدة، إلاّ أنّه لم ينجح في إقناع الإرادة السياسية بتمثل التجربة الألمانية، ربما لأن فكره كان غريبا في بيئة فكرية معادية، وظلّت اللغة العربية لغة رسمية على الورق، في حين سيطرت اللغة الفرنسية في الإدارات ومؤسسات الدولة، وأصبح لها جناح قوي يدافع عنها داخل السلطة. فتأجل بذلك حلم التحرّر الثقافي الذي سعى إليه مولود قاسم. ومع ذلك كان له الفضل في سد الفراغ المعرفي حول تاريخ أمته، وإبراز أهمية اللغة والدّين في الحفاظ على الهويّة، ولا يمكن

---

[1] – الزواوي بغورة، مرجع سابق، ص147.

[2] – مولود قاسم نايت بلقاسم، **إنية وأصالة**، مرجع سابق، ص115

الحكم على مسعاه بالفشل، ذلك لأن أصوات فلسفية مهمة في التاريخ لم يسمع صوتها في حينها، وربما عاش مولود قاسم قبل عصره؟

قائمة المراجع:

1- أحمد بن نعمان، مولود قاسم نايت بلقاسم: **رمز كفاح أمة: حياته، آثاره، شهادات ومواقف**، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1993.

2- الزاوي بغورة، **الخطاب الفكري في الجزائر: بين النقد والتأسيس**، دار القصبة للنشر، الجزائر. دط، دس.

3- رضا حنكوش، **مسألة الهوية في المجتمع الجزائري: جدل الذات والأخر**، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، عدد 19، أبريل 2009.

4- عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي، **مختصر تاريخ الجزائر: السياسي والثقافي والاجتماعي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

5- محمد موزو، **بعد 500 عام من سقوط الأندلس: الجزائر تعود لمحمد**، المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992 .

6- مولود قاسم نايت بلقاسم، **أصالية أم انفصالية**،ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991.

7- مولود قاسم نايت بلقاسم، **إنية وأصالة**، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975.

8- مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل: 1830**، ج2، شركة دار الأمة، الجزائر، ط2، 2007.